**القضيَّة اللُّبنانيَّة بين ثوابت الكيان وتحوّلات فلسطين الجيو - سياسيَّة**

30-11-2023 | 00:00 **المصدر**: "النهار"

**رجل يحمل العلم الفلسطينيّ وسط الركام (تعبيرية - أ ف ب).**

**زياد الصَّائغ\***

[#فلسطين](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d9%81%d9%84%d8%b3%d8%b7%d9%8a%d9%86)ُ قضيَّة حقّ وعدل. إغتصابُ أرضها وتهجيرُ أهلها جريمة ضِدَّ الإنسانيَّة مستمِرَّة منذ 75 عامًا. تديينُها يوازي تديين ما اعتبرته الصهيونيَّة مقدَّسًا يَسمَحُ بالمحظور. فلسطينُ للفلسطينييّن. أهلُ فلسطين أَدرى بشِعابها وهُم مؤتمنون على قضيَّتهم. فلسطينُ بوصلَة إنسانيَّة تحمِل قِيمًا إنسانيّة عميقة وتوقًا لاستِعادة الحقوق.

[#إسرائيل](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a5%d8%b3%d8%b1%d8%a7%d8%a6%d9%8a%d9%84)ُ قامَت على دِماءِ الشَّعب الفلسطيني وتشتيته ولم تَزَل منذ 75 عاماً. لم تَفهَم إسرائيل أنْ لا شرعيَّة تستطيعُ اكتِسابَها بالقُوَّة والقَتل. السَّلامُ عندَها مُراوغَة ومناورة ورهاناتٌ على تصفِيَة القضيَّة الفلسطينيَّة. هذا مسارٌ عكسُ أيّ اختِبارٍ تاريخيّ.

بين فلسطين وإسرائيل كانَت مُفَاوضات سلامٍ. لم يتقبَّلها مُتطرِّفون في المعسكرين. إسرائيل أجهَضَت كُلِّ مفاعيل هذه المفاوضات وحتَّى الاتِّفاقِيَّات التي نَجمَت عنها منذ مدريد (1991) وأوسلو (1993). أطلقت رصاصة الرَّحمة على مبادرة السَّلام العربيَّة في بيروت (2002). هذا مسارٌ عكسُ أيّ اختبارٍ تاريخيّ. إغتيالُ التَّسوية فَتَح شهيَّة من يعتمِدُ سياسة الأَوراق للحَرق، والسَّاحات للمُقَايَضَة.

حلفٌ موضوعيّ نشأ بين خيارَين نقيضين. كانت فلسطينُ تنزِفُ دونَ هَوَادَة. كان العالَمُ يتفرَّج. كانت الأُمم المتّحدة عاجِزَة. كانت جامعة الدُّول العربيَّة تؤكِّدُ الثَّوابِت في ثباتٍ سلبيّ. كانت الولاياتُ المتَّحدة الأميركيّة تُقَدِّمُ نَفسَها مُنحَازَةً إلى إسرائيل، رَغمَ ادِّعائها القَنَاعة التي لا لُبسَ فيها بحلّ الدَّولتين. الوساطةُ عند الولاياتُ المتَّحدة الأميركيّة انسَاقَت للتفرُّج على انهيار مُفاوضات مدريد، واتّفاقيَّات أوسلو، ومبادئ مبادرة السَّلام العربيَّة.

كانَت روسيا تسعى لدورٍ ما في حلِّ الصِّراع الفلسطيني- الإسرائيلي لكن بدا أنَّ طموحاتِها الإمبراطوريَّة الكارثيّة المستعادَة في سوريا، وأوكرانيا لا تعنيها فلسطين. بقِيَ الاتِّحاد الأُوروبي في حيِّز الاستِثمار في المؤسَّسة الفلسطينيَّة الدَّولتيَّة شكليًّا إنطِلاقًا من توسُّل استِدامَة الرِّهان على أن لا حلّ إلَّا بقِيام دَولَةٍ فلسطينيَّة.

حلفٌ موضوعيّ نشأ بين خيارَين نقيضين. كانت فلسطينُ الضَّحيَّة. تديينُ القضيَّة الفلسطينيَّة مَقتَلَة. تسييسُ اليهوديَّة بأيديولوجيا صهيونيَّة إجراميَّة يستأهلُ تحرُّك الضمير العالميّ والقضاء الدَّوليّ. زلزالُ الأديانِ المُعَسكَرَة مآلاتُه مأساةٌ لا تنضُب. في المحصِّلة العَدلُ يبقى بُوصلَة لِأيّ مسعى تهدِئَة. دون العَدلِ كُلُّ العالم سيواجِهُ براكين متحرِّكة، أمَّا تِلك الرَّاقِدَة فثَمَّة من يمتلِك خُبثَ تحريكها واستِغلالِها. الانتِقام في المقابل، كُلُّ انتِقام ينتِجُ صِراعًا أزليًّا.

متى تبرد عُقُول الإجرام؟ كفى دماء. إسرائيل بعد حرب غزّة، وفي مُتابعة لانتِفاضات الرأي العامّ اليهوديّ تسيرُ إلى حتفٍ أيديولوجيّ حتميّ. من يُتابع سرديَّة مراكز أبحاثها، وإعلامها، وشتاتِها يَستقرّ على أنَّ جوهر قيامها بالعدوانيّة بات تحت مجهر النّقد، بل تحت مجهر التحوّل الاستراتيجي أيضًا. أمّا من تحالَفَت مَعَهُم وتحالَفوا معها موضوعيًّا من تطرّفات، فهُم باتوا في السياق النّقدي عينه. يبقى دور الكُتْلَة العربيّة وفاعليّتها، عسى تستنهِض ذاتها من بوَّابة المسؤوليّة التّاريخيّة أكثر منه الاستِطراد في تكرار الشعارات.

في كُلِّ ما سبق يتنامى في عُمقِنا تساؤل من يحمي لبنان من هذا الحِلفِ الموضوعيّ، والحقيقةُ أنَّ دون حيادٍ إيجابيّ مرفُودٍ بدعمٍ ديبلوماسيّ منهجيّ للقضيَّة الفلسطينيَّة، سيتكرَّسُ الصِّراعُ بين اللَّادولة وما تبقَّى من الدَّولة في مربَّع استِنزاف يغتالُ القضيَّة اللبنانيَّة في كُلِّ تجلِّياتِها الحضاريَّة. الوضوحُ الأَخلاقيّ في ترجمته الجيو-سياسيَّة يقتضي من المجتمع الدَّولي وقف مجازر إسرائيل وانتهاكاتها بحقّ فلسطين وشعبها، ويقتضي أيضًا تنفيذ "حلّ الدَّولتين" وعودة اللَّاجئين الفلسطينييّن، كما يقتضي تحرير لبنان من مُستبيحي الدَّولة فيه، ومِمَّن حوَّله ساحة ومنصَّة وتصفية حسابات وتوجيه رسائل لا علاقة لهُ بها.

في موازاةِ كُلِّ ما سَبَق ثمَّة سؤالٌ قد يعتبِرُ كثيرون أنَّ مشروعيَّتَهُ قائِمَةٌ في الموجِب الموضوعيّ لتأثُّر لبنان الحتميّ بنتائج حرب غزَّة، سؤالٌ يتأتَّى في عنوان هذه النَّدوة: "أيّ لبنان بعد غزَّة؟"، وإجابتي بسيطة على الرَّغم من أنَّ البعض قد يقرأها ساذِجَةً تبسيطيَّة إلى حدِّ التَّفاهة. لبنان هُو لبنان في ثوابتِه الكيانيَّة، ودستورِه الواضِح، وطُمُوحِه إلى قِيام دولة المواطنة السيّدة الحرَّة العادِلة المستقِلَّة. فَهْمُ طبيعة التحوّلات الجيو-سياسيّة، والتّفاعل معها، وتبويب سيناريوهاتها، واجبٌ حتميّ وإلّا نكون في مربّعاتٍ يوتوبيّة. لكنْ بين الفَهْم والتّفاعُل للتحرّك، والاستنقاع في التّحليل وتحتيم الافتراضات هُنا وثمّة، ثمَّة بون شاسِع. لبنان هُو لكن ثمَّة سرديَّات تعمِّمُها بعضُ بروباغاندا، وبعضُ واقعيَّة، وبعضُ انهِزاميَّة. لكُلٍّ من هذه البعضُ خلفيَّاتُها، وإذا كان لديّ فَهمٌ لطبيعة البروباغندا المؤطَّرة أيديولوجيًّا، فإنَّ تفهُّمي للواقِعيَّة ينزِعُ إلى مُناقشتها بهدوء، لكنّني مُصِرٌّ على الابتِعاد عن تفنيد الانهِزاميَّة التي غالِبًا ما تتلطَّى ببراغماتيَّةِ تأقلُمٍ قاتِلَة. سأقاربها بخَفَر خوفًا من فشلي في المُحاججة معها؟

**1. لبنان بعد حرب غزَّة**
في سرديَّات البروباغندا
سرديَّات البروباغندا واضِحَةُ المَعَالِم. ثمَّة من يُمسِك بزمام المُبادَرة بالهجوم والرَّدع. زمامُ المبادرة عَندَهُ دَولَةُ اللَّادولة. يُتقِنُ فيها الاتِّزان والحكمة وقواعِد الاشتِباك بحسب معاييره. تُحصِّنُه فيها شِعَاراتٌ مِمسُوكَة وميدانيَّاتٌ مضبُوطة. يَستَلهِمُ منها تصنيف الأنقياء والمشبُوهين. يُحرِّكُ فيها كُلِّ الأَذرُع المُركَّبَة في افتِعالاتٍ مُدَوزَنَة غُبَّ الطَّلَب. يتموضَع فيها مقتدِراً على إنجاز أيِّ صفَقَة تحميه، ولو كانَت تُناقِضُ عِلَّة وُجُودِه. لُبنَان بعد حرب غزَّة في سرديَّات البروباغاندا هديَّةٌ مِطوَاع، إذ هو الانتِصارُ حتميّ، إمَّا بالمُغَامرة أو بانضِبَاطِ الإيقاع. كثيرون إلتَحَفُوا هذه السَّرديَّات. لم يعُد لمصطلحات الدُّستور والسّيادة والإجماع العربيّ والقرارات الدَّوليَّة لديهِم أيُّ قِيمَة. موازين القِوى لا تَوازُن الدَّولة عِندَهُم باتَ الأساس. حوَّلت المنظومة السِّياسيَّة الحاكِمَة ما تبقَّى من الدَّولَة جِهازًا أقلُّ من إداري، إذ أمسَت الأَخيرة بمؤسَّساتِها إنفعالًا تابعًا لفِعلٍ مَأمُور بأجندَة معروفَة الارتِباطات. سرديَّات البروباغاندا إحتلَّت مساحاتِ التَّواصُل الحقيقيَّة والافتِراضِيَّة. فَرَضَت في لُبنَان من جديد حقيقَة السَّاحة والمنصَّة. في أيِّ حال، سرديَّات البروباغندا مرحليَّة موضعيَّة واستِدامتُها مُستَحيلَة، إذ هي في معناها مُفَبرَكة في تحميل الميدان نتائجَ مترهِّلة أمام مُراكمة وعيٍ لُبنانيّ أصبَح يَفهَم عميقًا طبيعة مراميها السُّلطَوِيَّة.

**2. لُبنان بعد حرب غزَّة**
في سرديَّاتِ الواقعيَّة
سرديَّاتُ الواقِعيَّة واضِحَةُ المَعَالم. ثمَّة من يُمسِك بزمام مبادرة تحجيم العَقلِ النَّقديّ وتخوينه وتعطيله. زمام المبادرة عِندَهُ الانكِفاءُ إلى معقِلِ الحرب مُقارَبَةً، وتحليلًا، واستِشرافًا. إندِفاعَةُ هذا الانكِفاءِ عِندَ هذه السّرديّات قابِعٌ في موجِب التأقلُم مع الواقِع الميدانيّ، وانتِهاجِ خيار التأقلُم مع المشهديَّة الميدانيَّة ومحاولة سبرِ أغوار الخلفيَّات التي تتحكَّم بها، أو من المُمكِن أن تفرُزها نتائِجَ مُحتَمَلة في طبيعة الصِّراع القائِم، إنطِلاقًا من أنَّ فَلسَفَة "وحدة السَّاحات" تفتَرِضُ بعد التَّناغُم العسكريّ ضابِط إيقاعٍ وحيدًا يُقرِّرُ عن الجميع دون استثناء مٌخرَجات المُستَقبَل. سرديَّاتُ الواقعيَّة قابِلَة للتبدُّل الكامِل مع كُلِّ مستجدٍّ ميدانيّ أو تحليليّ يحترِفُه بعضُ المؤثِّرين الذين من الضروريّ بمكان مُقارَنَةُ مواقِفهم المتناقِضَة بِفِعل الحيِّز المهنيّ الذي يعتبِرونَهُ مؤهِّلًا لَهُم الدِّفاع عن هذا المنطق أو نَقيضِه، إذ هو التِّاريخُ متحوِّل والسِّياسَة أمُّ التحوُّلات. ثمّة في سرديّات الواقعيّة ما هو احتمالٌ أن يحمِلُنا إلى دمارٍ هائل، والأجدى الوحيد التّضامن الوطني، ولا غير ذلك. في أيِّ حال، سرديَّاتُ الواقِعِيَّة مرحليَّة موضعيَّة واستِدامتُها مُستحيلة، إذ هي في معناها تتشكَّل من الوقائِع أكثر مِنه في مآلاتِها ذات السِّمات المُعَقَّدة في إمكانيَّة تثبيت نتائج في وعيٍ لُبنانيّ أصبَح يَفهَم عميقًا، أقلَّه على مستوى الكُتلَة التَّاريخيَّة الفَرق بين الفَرْضِ بالقُوَّة وقُوَّة الحقّ.

**3. لُبنان بعد حرب غزَّة**
في سرديَّاتِ الانهِزاميَّة
سرديَّاتُ الانهِزاميَّة واضِحَةُ المعالم. لقد انتَصَرَت المُقايَضَة. الأَقوياء يُفاوضون الأقوياء. على لُبنان الاستِعداد لرُضوخ وخنوع وخُضُوع. إمكاناتُ وقفِ هذه السّمات مَعدُومَة. تشخيصُ المشكِلة غير واضِح. الوعيُ الوطنيُّ غائِب. فشِلَت مساراتُ جَمع القِوى السِّياديَّة الإصلاحيَّة التغييريَّة والقِوى المجتمعيّة الحيَّة. هؤلاء جميعُهم قاصِرون. دَهاءُ مَن يُمسِك بزمام المبادرة إنتِصاريٌّ في جيناتِه التأسيسيَّة. الأُفُق مسدودٌ أو أقلَّه غير واضِح. في أيِّ حال سرديَّاتُ الانهِزاميَّة مرحليَّة موضعيَّة واستِدامتُها مستحيلة. لا مكان للانهِزاميَّة في التَّاريخ ولو تلطَّت بشعار موجب التأقلم للمواجهة، هي في ذاتِها انتحارٌ وعَدَم.

مهما يكُن من أمر سرديّات البروباغندا، والواقعيَّة، والانهِزاميَّة، تبقى مشروعيَّة تساؤل "أيّ لبنان بعد غزَّة"، كما الإجابَة عنه لا تستقيم سِوى بعد تفكيك هذه السَّرديَّات والانحياز إلى تطبيق الدُّستور، فهُوَ الفَيْصَلُ الحاسِمُ بين الدَّولة واللاَّدولة، قبل حرب غزَّة وبعدها لن تتغيَّر طبيعة المواجهة في لُبْنان. هي مواجهة حول هويّة لبنان ووظيفته في داخله، في الإقليم، وعلى المستوى الدّوليّ. لبنان مسارٌ حضاريّ في الحريّة، والتنوّع، والحِوار، وحقوق الإنسان، وبناء السّلام، والحياد الوسيط الدّاعم لقضايا العدل، وفي مقدّمها القضيّة الفلسطينيّة، القضيّة الفلسطينيّة تعنينا. لُبْنان يبقى في موازاتِها همّنا الأساس، إذ حين يكونُ معافىً سيِّدًا حرًّا مستقلًّا يؤدّي ديبلوماسيّة فاعِلة في الشرق والغرب، حينها فقط يخدُمها بفاعليّة. ثمَّة من ينسِفُ يوميًّا هُويّة لبنان، وهُم كُثُر حُلفاء وخصوم، كلّ بحسب تكتيك إمّا مُرتَهَن أو قاصر. لكنَّ خيار كلّ هؤلاء مستحيل الاستدامة. هكذا يعلّمنا التّاريخ. الحروب مَقْتَلَة دائمة وهزيمة دائمة. هُنا بيت القصيد. ألا أنْصف الله فلسطين، وأعاد العالم العربيّ فاعِلًا لا متفاعِلًا، والمجتمع الدّولي ضنينًا بضميرٍ أخلاقيّ، وحمى لبنان.

**\*المدير التنفيذي لـ "ملتقى التأثير المدني"**